عبد الغني خمّاس

النابغة الذبياني

((شاعر المديح والاعتذار))

مكتبة النهضة - بغداد

النابغة الذبياني

((شاعر المديح والاعتذار))

عبدالغني خمّاس

مكتبة النهضة - بغداد

الأهـــداء

الى روح والدتي التي أبتْ ألاّ ان تحشرني في زمرة الفضلاء، وأن تُبعدني عن أجواء الجهل والجهلاء .

الى لحدها المضمخ بالرحمات، أهدي هذه الكلمات .

المؤلف

مكتبة النهضة - بغداد

الطبعة الاولى - بغداد ١٩٨٨

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

النابغة الذبياني
شاعر المدح والأعتذار

توطئة

لقد حاول الأسكندر المقدوني، بعد أن أنتهى من فتح الشام والعراق في القرن الرابع قبل الميلاد.

أن يتوغل في الجزيرة العربية، وأن يحتل أطرافاً منها ولكن عجز عن ذلك، لقساوة طبيعتها، وجرأة رجالها وأنفتهم، وعدم خضوعهم وأنقيادهم لأي وافد أجْنبي.

لقد تعوّد العرب ان يعيشوا أحراراً في صحرائهم، يتنقلون ما بين فيافيها ووديانها وكثبانها.

اذا أعجبهم المكان أقاموا فيه، فاذا ما ملوا المقام، حملوا خيامهم وأمتعتهم على جمالهم، وأنتجعوا مكاناً آخر، مؤثرين حريتهم على كل غاية، وأطمئنانهم على كل هدف.

لهذا لم يجد الأجانب موضعاً لهم في هذه الجـزيرة، بـل لم يفكروا اطلاقاً ان يتوغلوا داخلها، لأن ذلك كـان يخيفهم كانت تخفيهم الطبيعة القاسية، التي لا يصبر عليها ألا ابنـاؤها الـذين تعودوا قساوتها، واصبحت أجسامهم تتحمل كل ما تأتي به أرض الجزيرة من حر لاهف، وبرد قــارص.

ليس معنى هذا ان كل انحاء الجزيرة كانت على هذا الشكل من القساوة في الجو، لا . . بل كانت هناك بقاع منها قد اشتهرت بطراوة الجو ودفئه، وغزارة المياه، وخُضرة الأرض، مثالا على ذلك الطائف، الذي أشتهر بأعنابه وزرعه، وبعض انحاء المدينة ومكة التي كانت تزرع فيهما أنواع من القمح، ولقد أشتهرت اليمن منذ القديم بأرضها المعطاء، وجوها الرائق، حتى كان تُوصف بعض مناطقها بالجنان مثل جنة عدن. التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

لهـذا فقد عــرفت هذه المنـطقة وبعض المنـاطق الآخرىٰ حضارات ودولا كالسبئية والمعينية والحميرية.

كما عرف شمال الجزيرة دولا كالغساسنة في الشام والمناذرة في العراق، وسنذكر أمر هاتين الـدولتين لأن الحـديث عن شاعـرنا النابغة الذبياني لذو صلة وثيقة بهاتين الـدولتين، أو الأمـارتين، بتعبير أدق. لأنه كثيراً ما كان يرتاد هاتين الأمارتين يمدح الحكام فيها، وخاصة الغساسنة الذين كانوا يعتـبرونه شـاعر بـلاطهم، والمدافع عن أمجادهم وسلطانهم.

لأن صاحبنا كان من المتكسبين ـ كما يقال ـ فهو يمدح لكي ينال الثروة والحظوة لدىٰ الملوك والأمراء، ولما كان أمراء الغساسنة وملوك المناذرة، من الذين يجدون في الشعر إذاعة لأمجادهم، فقد أستقبلوا في بلاطيهما الشعراء، ومن ضمنهم الشاعر النابغة الذبياني، واني لأرىٰ غير ذلك، وسأتعرض للحديث عن موضوع التكسب، في خاتمة الكتاب .

دولة الغساسنة

الرأي السائد، ان الغساسنة من عرب الجنوب، أستقروا أول ما أستقروا قرب ماء يطلق عليه غسان، فنسبوا اليه، ثم بعدها أنتقلوا الى الشام.

وقال آخرون أنهم سكنوا الشام بعد هجرتهم من جنوب الجزيرة، دون أن يركنوا الى اي أرض أخرى.

نزلوا الشام، وكان فيها الضجاعم، من قضاعة، فغلبوهم على ما في أيديهم من أراض وسكنوها، ولما كانت أرضهم مجاورة، ومحاذية لأرض الروم، وجد هؤلاء أن يستميلوا الغساسنة الى جانبهم، وان يملكوهم على العرب المجاورين لأراضيهم، وبذلك يكونون قد حققوا أشياء منها:

أنهم أمنوا شر هؤلاء القوم والأقوام التي تليهم، كما أمنوا

غارات البدو الأعراب ضد أطراف دولتهم المتآخمة لجزيرة العرب.

وأن يكونوا لهم عوناً على أعدائهم التقليديين الفرس الذين كانوا يتحينون الفرص للأنقضاض على حواشي دولة الروم، كما كان الروم أنفسهم يقومون بنفس الدور ضد الدولة الفارسية.

لذا فقد أسسوا هذه الإمارة، ونصبوا عليها أميراً أو ملكاً ليقوم بالمهام التي أشرنا اليها آنفاً وكانوا يشترطون على هذا الأمير أو الملك شروطاً لابد ان يلتزم بها، واذا ما أخلَّ بشرطمنها فسيكون نصيبه العزل أو القتل، كما حدث لبعض أمرائهم.

أما عدد ملوكهم فقد ذكر حمزة الأصبهاني في كتابه (سِني الملوك) أنهم بلغوا أثنين وعشرين ملكاً، أولهم جفنة ابن عمرو مزيقيا، وآخرهم جبِّلة بن الأيهم، وقصته مع الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) مشهورة.

أما المستشرق الألماني «نولدكه» الذي أهتم بدراسة هذه الدولة فقد جعل ملوكها عشرة، وأنها دامت قرناً واحداً لا ستة قرون كما ذكر الاصبهاني في كتابه المتقدم كانت دولتهم الآن أراضي البلقاء وحوران وكان في هذه المناطق دير الراهب بحيرى، الذي رأي ملامح النبوة على محمد (ﷺ) فأوصىٰ عمه ان يحميه من غدر اليهود[1].

---

(١) العرب قبل الاسلام. جرجي زيدان ص ٢٠٩ .

بقي هؤلاء القوم حراساً للدولة الرومانية الشرقية يحافظون على حدودها ضد غارات الأعراب، ويحرسون القوافل التجارية التي تفد الى الأمبراطورية الرومانية من شتىٰ أصقاع العالم، حتى جاء الاسلام، فحررها من سطوة الروم، وأرجعها الى آصالة العروبة وعظمة الاسلام، علماً ان كثيراً من قبائل الغساسنة ظلت على نصرانيتها، لأن موقف الاسلام معروف من أصحاب الديانات الموحدة.

دولة المناذرة

نشأت دولة المناذرة في عهد سابور الأول ٢٤١ - ٢٧٢م

وأول ملك لهذه الدولة هو عمرو بن عدي اللخمي، ثم تلاه من بعده أولاده، وأشهرهم، النعمان الأعور، صاحب قصري الخورنق والسدير، وكان معاصراً ليزدجرد الأول الذي ارسل أكبر أبنائه بهرام جور الى الحيرة لينشأ نشأة عربية، ويتعلم الفروسية وفنون الصيد.

وقد أتقن بهرام اللغة العربية، ومالَ الى أهلها. ومن ملوكهم اللامعين المنذر بن ماء السماء، صاحب يومي البؤس والنعيم، وكان معاصراً لقباذ الذي كان قد أعتنق الديانة المزدكية، وطلب من المنذر أن يحذو حذوه، فلما أبىٰ خلعه من إمارة المناذرة وولىٰ محله الحارث بن عمرو أمير كندة.

ولكن سرعان ما يذهب قباذ، ويأتي مكانه كسرىٰ أنو شروان الذي كان يكره المزدكية، فأعاد المنذر الى حكم الحيرة.

وخلف المنذر هذا أبنه عمرو بن هند ٥٠٤ ـ ٥٦٩م الذي كان مشهوراً بالطيش والجور، وهو صاحب الشاعرين طرفة والمتلمس وقصته معهما مشهورة وفيه يقول الشاعر :

أبىٰ القلب أن يهوىٰ السدير وأهله
وإن قيل عيش بالسدير غرير
به البقُّ والحمىٰ وأسدٌ خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجور(×)

وأخيراً أستطاع عمرو بن كلثوم التغلبي ان يقتل هذا الأمير الجائر ثأراً لكرامة أمه ليلىٰ التي أرادت هند أم الأمير السابق أن تذلها وتستخدمها والقصة مشهورة، ولقد ذكر عمرو بن كلثوم كل ذلك في معلقته التي مطلعها)

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تُبقي خمور الأندرينـا

× ـ لم أعثر على أسم قائل هذين البيتين .

وآخر ملوك المناذرة النعمان الثالث، المكنىٰ بأبي قابوس وفيه قال الشاعر النابغة أعتذارياته.

وكان كسرىٰ ملك الفرس قد سحقه ونكُّل به، لأنه قتل عدي بن زيد العبادي . . وبسببه كانت وقعة ذي قار، حيث أنتصرت قبيلة بكر على الفرس وعلى أياس بن قبيصة الطائي، الذي نصبه الفرس خلفاً للنعمان.

وبقىٰ الأمر مضطرباً في الحيرة، حتى فتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٣م .

وقبيلة ذبيان، التي ينتمي اليها الشاعر، لم تدخل التاريخ بل لم يكن لها شأن يذكر، ألا بعد حرب داحس والغبراء التي قامت بين ذبيان وعبس، والتي دامت ـ كما يذكر الرواة ـ أربعين عاماً، من ٥٦٨ الى سنة ٦٠٨ للميلاد.

وسبب هذه الحرب سباق بين داحس وهو جواد لقيس بن زهير سيد بني عبس، والغبراء وهي فرس لَحَملْ بن بدر سيد بني فزارة.

وكان هذا السباق على رهان بين هذين السيدين فينطلق وعند نهاية الشوط، كان الفوز حليف داحس، لولا ان الفزارين أقاموا له كميناً في نهاية الشوط مما أعاقه واخرجه عن الطريق الذي رسم له ففازت عليه الغبراء .

ولكن قيساً سيد بني عبس غضب أشد الغضب، ويرسل الى حمل بن بدر يطالبه بالرهان بأعتبار ان حصانه هو الغالب، ولكن حَمل بن بدر أرسل الى قيس أبنه يطالبه بتأدية الرهان، وما كان من قيس ألا ان قتل ابن حمل فثارت لظى الحرب بين القبيلتين ولم تقتصر الحرب على القبيلتين، بل شملت بعض القبائل الحليفة التي أنضمت متحالفة الى كل قبيلة من القبيلتين المتقاتلتين. فكان مع عبس بنو عامر، ومع ذبيان بنو تميم وبنو أسد.

ودامت سلسلة من المعارك الطاحنة بين هؤلاء، من أهمها.

يوم المريقب، وكانت الغلبة فيه لعبس على ذبيان، وفي هذا اليوم قتل الفارس المشهور عنترة العبسي، ضمضماً أبا حصين المرىّ، والحارث بن بدر، ويوم ذي حسى وكان لذبيان على عبس، كما وقعت مصادمات أخرىٰ بين هذه القبائل وأحلافها، ويوم جفر العباءة، وكان لعبس على ذبيان، وفيه قتل حذيفة وحمل أبنا بدر ورثاهما قيس بن زهير سيد عبس رثاء حاراً، وهذا انْ دل على شيء فأنما يدل على نبل ووفاء، قال :

شفيتُ النفسَ من حَمَل بن بدرٍ
وسيفي من حُذيقة قد شفـ
شفيت بقتلهم لغليل صدري
ولكني قطعت بهم بناني

واشتبكت الفئتان في حروب كثيرة أشهرها يوم شعب جبلة وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها، وفي هذا اليوم قتل لقيط بن زارة التميمي، أما أخوة حاجب زرارة فقد أسر.

وأخيراً رأت عبس وأحلافها أن توقف هذه الحرب التي أتت على الأبطال والرجال، وراحت تحصدهم حصداً.

فارسلت وفداً الى ذبيان لطلب الصلح، وأتصل الوفد بسيدي بني مرة، الحارث بن عوف، وهرم بن سنان فكانا رسولي خير وسلام. فلقد أديا ديّات القتلىٰ من أموالهما الخاصة، والتي بلغت ثلاثة آلاف بعير.

وبذلك وضعت الحرب أوزارها.

ويظن ان النابغة لم يكتب له ان يعاصر أنقضاء تلك الحرب، فقد توفىٰ قبل ذلك بقليل.

وبينما كانت قبيلة ذبيان تدير الحروب مع عبس وأحلافها كانت لها حروب مع الغساسنة، هي وحليفتها قبيلة أسد اللتان كانتا مع المناذرة ضد الغساسنة.

فكانوا أحياناً ينتصرون على الغساسنة، وأخرىٰ ينهزمون أمامهم تاركين الأسرىٰ، مما أضطر النابغة ان ينزل بالغساسنة، ويستعطفهم، حتىٰ يردوا الىٰ الاسرىٰ من قبيلة ذبيان حرياتهم.

ومما أضعف قبيلة ذبيان انها كانت تنازل عبساً والغساسنة وأحياناً كانت تتقاتل فيما بينها.

يقول شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي، «فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً، بل كثيراً ما كانت تتحارب، وتتقاتل، ويعتزل بعضها بعضاً»(١)

الاسباب التي دعته يكثر من الاعتذار في شعره:

من المعروف ان قبائل نجد عندما قضت على مملكة كندة، التي كثيراً ما كانت تنازل المناذرة وتحاربهم.

ولا ننسى ان امرأ القيس بن حجر قتل والده من قبل بني اسد، أتصل بأعداء المناذرة التقليديين (الغساسنة) ليعينوه على الأخذ بثأر أبيه.

ولما كانت قبيلة ـ ذبيان التي ينتسب اليها الشاعر ـ قبيلة نجدية لهذا نجد شاعرنا يلازم النعمان بن المنذر أمير الحيرة ويظل يمتدحه، ويتغنى بمناقبه.

وقد سر النعمان بوفود النابغة عليه، فقربه اليه دون بقية الشعراء أمثال أوس بن حجر التميمي. ولبيد العامري، والمثقب العبدي.

وأغدق عليه الجوائز والصلات، وجعله نديماً له، وقد أعترف النابغة بكل ذلك في معلقته، إذ يقول: مشيراً الى عطايا النعمان وهباته.

---

(١) شوقي حفظي: العصر الجاهلي ص ٢٦٨ .

الـواهـب المـائـة المـعـطاء زيـنـهـا
سـعـدان تـوضـح في أدبـارهـا اللّبـد
والخـيـل تمـزع غـربـاً في أعـنـتـهـا
كـالـطير تنجـو من الشؤبـوب ذي الـبرد

المعطاء: القوية: السعدان: مراع
تمزع: تسح وتجري جرياً شديداً: الشؤبوب: السحابة

فقد كان يعطيه المائة من الأبل، والقطيع من الخيل غير الهبات الاخرىٰ.

ولكنه فجأة ينقلب هذا الشاعر الى بلاط الغساسنة والسبب هو ان الغساسنة منعوا القبائل ان تنزل وادي أُفر الخصيب ولكن ذبيان وحليفتها قبيلة أسد نزلتا هذا الوادي، فنكل بهم الغساسنة وسبوا كثيراً منهما وخاصة من النساء.

فتألم النابغة ألماً شديداً صوره في قوله:

لـقـد نهـيـت بـني ذبـيـان عـن أُفـر
وعـن تـربـعـهـم في كـل أصـفـار
وقـلـت يـا قـوم ان الـلـيـث مـنـقـبض
عـلىٰ بـراثـنـه لـوثـبـة الـضـاري

لا أعــرفن ربــربــاً حــوراً مــدامعهــا
كــأن أبــكــارهــا نــعــاج دوار
يــذرين دمعــاً عــلىٰ الأشفــار منحــدراً
يــأمــلن رحــلة حــصــن وأبــن ســيــار

فقد صور نساء ذبيان وهن أميرات يذرفن الدموع وينتظرن من سوف يخلصهن من ذل الأسر.

ويقال ان أحدىٰ بنات النابغة، كانت أسيرة ضمن نسوة ذبيان، وفي قصيدة أخرىٰ يصور الكرب الذي حل بالرجال فيقول:

لم يبق غــير طريــد غير منغلب ومــوثق في حبال القــد مسلوب
أو حرة كمهاة الرمل قــد كُبلتْ فــوق المعــاصم منهــا والعــراقيب

بهذا لم يجد النابغة بداً من ان يذهب الى الغساسنة ويتقرب اليهم ويمدحهم، علهم بذلك يكفون عن قومه. ويطلقون الاسرىٰ منهم.

هبط عليهم ومدح عمرو بن الحارث الأصغر أمير الغساسنة كما مدح أخا النعمان، وراح يواصل مدحه لهما.

فنزل ضيفاً على البلاط فأكرمه واطلق الاسرىٰ الذبيانيين .

وهكذا كان شاعرنا سفير قومه لدىٰ الغساسنة فقد خلص الاسرىٰ من ذلك الاسار، وحاول جاهداً أن يقنع الغسانيين ان لا يفكروا بمحاربة قومه.

وهذا ما أوغر صدور المناذرة عليه لأنهم خافوا ان تعلن قبيلة الشاعر ولاءها وأنضمامها الى الغساسنة.

ولما توفىٰ عمرو وأخوه النعمان، صمم ان يترك ديار الغساسنة وان يرجع الى حلفائه المناذرة، ولكن قلوب هؤلاء القوم كانت مليئة بالحقد عليه، وخاصة النعمان بن المنذر أمير المناذرة.

ومن هنا أنطلق يعتذر عما بدر منه تجاه حلفائه المناذرة حتى عفا عنه النعمان.

أما الروايات الأخرىٰ، التي وردت في كتب الأقدمين مثل وصف النابغة لأمرأة النعمان المتجردة وصفاً جريئاً مما جعل النعمان يستنكر ذلك ويتوعده، أو غيرها من الروايات فهي بعيدة كل البعد، عن حقيقة نزوح النابغة نحو الغساسنة ومدحه لهم، وبالتالي أعتذاره عن ذلك الى المناذرة.



حياته

ينتمي شاعرنا النابغة الذبياني، الى قبيلة ذبيان القحطانية القيسية، ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فزارة، وبنو مرة، وبنو سعد.

ولم يلمع أسم هذه القبيلة، وينتشر أمرها ألا بعد قيام حرب داحس والغبراء بينها وبين قبيلة عبس.

أما أسمه فهو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع وأمه عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبيانيين.

فهو أذن ذبياني النسب من جهة الأب ومن جهة الأم، وكان يُكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة، وهما أبنتاه.

كما كان يُلقب بالنابغة، لنبوغه في قول الشعر.

وقد تلقب بهذا اللقب عدة شعراء، كالنابغة الجعدي والنابغة الشيباني، والنابغة التغلبي.

والواقع ان حياة الشاعر الاولى تكاد تكون مجهولة، ولكن يبدو أنه كان من أعيان قبيلة ذبيان، بدليل أن يزيد أخي هرم بن سنان قد صاهر الشاعر، وهذا من أعيان وأثرياء قبيلة ذبيان.

ولكن حياته الثانية، التي تبدأ بأتصاله بملوك المناذرة نستطيع ان نتعرف عليها من خلال أشعاره.

ومع علو منزلة الشاعر في قومه، ودفاعه عنهم أذا ما نزل بهم مكروه، فنحن لم نقرأ للشاعر شيئاً عن الحرب الضروس التي دارت رحاها بين قبيلته وقبيلة عبس، ألا بعض الأشارات الطفيفة كما ذكر تحول قبيلة عبس الى عامر ومفارقتها لأبناء العمومة الذبيانيين قال:

أبلغ بني ذبيان أن لا أخاً لهم
بعبس أذا حلوا الدماخ فاظلما
هم يرِدُون الموت عند لقائه
اذا كان ورد الموت لابد أكرما

«الدماخ: جبال: أظلما: أسم موضع»

وكأنه يريد من قومه ان يسالموا قبيلة عبس، وليس في قوله هذا وعيد أو تهديد لقبيلة عبس. بل وصفهم بالشجاعة والجرأة.

ولكن الغريب أنه تعرض لحلفاء عبس يهددهم بالويل والثبور كما فعل مع عشيرة عامر، فراح يهاجم أبطالها مثل زُرعة بن عمرو، وعامر بن الطفيل، ويهددهم بغارات تسبىٰ النساء وتُيتم الأطفال.

ولقد هاجم هجوماً عنيفاً من دعا الى نقض الحلف ما بين ذبيان وأسد، وكان يرىٰ ان التحالف لابد أن يبقى بين هاتين القبيلتين، وهاجم بني عامر التي دعت الى ذلك قال:

قالت بنو عامر خالوا بني أسد
يا بؤس للجهل ضراراً وقوام
يأبى البلاء، فلا نبغي بهم بدلا
ولا نريد خلاء بعد إحكام

«خالوا وخلاء: نقض العهد»

ونأخذ من أخباره انه كان سيداً في قومه مسموع الكلمة ومن خلال أشعاره يبدو لك النابغة، انه بعيد كل البعد عن اللهو وقضاء أوقاته فيما يقضيه الشباب من أقرانه، بل كان يحمل آلام قومه، فهو سفيرهم لدى المناذرة وشفيعهم لدى الغساسنة، يحمل همومهم ويحاول جاهداً ان يخفف من اعباء الحياة عن كواهلهم.

ويقال ان مكوثه الطويل في الحيرة ولدى الغساسنة، قد تأثر بحكمة الأحبار والرهبان، فانصرف عن لذائذ الحياة، وتوجه الى الامور العظام.

وقد أثر عنه انه حرم الخمر والأزلام في الجاهلية وأكبر الظن انه كان من الأحناف، وان كان متأثراً بدين آبائه، او كان يتظاهر بأنه على دين الآباء ويبدو انه نال شهرة واسعة عند العرب جميعا، إذ كانوا يعرضون عليه أشعارهم. قال صاحب الأغاني «كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض

عليه أشعارها، وحدث ذات مرة ان أنشده الأعشى ابونصير، ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد .

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداة به
كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فقال: والله لولا ان أبا نصير أنشدني آنفاً لقلت: إنك أشعر الجن والأنس.

فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة: يا ابن أخي أنت لا تحسن ان تقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وان خلت ان المتأى عنك واسع
خطا طيف حجن في حبالٍ متينة
تمدُّ بها أيد إليك نوازع

فخنس حسان لقوله. وفي رواية أخرى انه لما غضب حسان قال له: أنا أشعر منك ومن أبيك، قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول

لـنـا الجفـنـات الـغـرُّ يلمعن بالـضـحـى
وأسـيـافـنـا يـقـطـر ن مـن نـجـدة دمـا
ولـدنـا بـنى الـعـنـقـاء وأبـنـى محـرق
فـأكـرم بنـا خـالا وأكـرم بنـا ابنما

فقال له النابغة: «أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك» وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على علو كعب النابغة في الشعر وتذوقه، وإلا لما نصبوه ليكون حكماً بين الشعراء



شعره

لا شك ان النابغة الذبياني، كان من فحول الشعراء الجاهلين، ولو لم يكن كذلك لما أستطاع ان يرقى الى ان يكون حكماً ما بين الشعراء كما أسلفنا.

ولو لم يكن قد طار صيته في الآفاق كشاعر مبدع في فنون القول، لما أحتفى به بلاط المناذرة، وأستقبله بلاط الغساسنة أسقبالا يليق بمكانته، يوم أتجه نحوهم ليمدحهم، وبالتالي ليكون شفيعاً لأولئكم الأسرى الذين وقعوا في اسر الغساسنة.

وفعلا أستطاع النابغة، بما أوتي من رقيق القول ولطيف المدح، ان يستلين قلوب الغساسنة فيطلقوا الأسرى الذبيانيين، الذين أسرو في موقعة وادي أُفر التي تكلمنا عنها سابقاً.

وقد عده ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء من الطبقة الاولى مع إمرىء القيس وزهير والأعشى. اذ قدمهم على كافة الشعراء الجاهلين.

وكان شاعرنا من المجودين في شعره، فهو لا يخرج شعره ألا بعد ان يصقله وينقحه، وبعد ان يختار له اللفظ الجزل والصورة الواضحة والأطار الأنيق. وربما كان لإقامته الطويلة في ديار المناذرة والغساسنة، أثر في ترقيق ألفاظه، وتنميق الصور الشعرية في

شعره، ولكن ليس معنى هذا انه تخلص تماماً من الديباجة البدوية في أساليبه الشعرية ولقد شُهر النابغة بالمديح والأعتذار، حتى ان بعض النقاد قصروا شعر الرجل على هذين النوعين فقط. على انه تغزل، ووقف على الأثار ورثى، وأستعطف، لكن مديحه وأعتذاره كانا قد تميزا عن بقية أنواع الشعر.

وقد عيب على النابغة ان يتكسب بشعره، وان يلج قصور الملوك من المناذرة والغساسنة يكيل لهم المدائح ليحظى بعطاياهم وجوائزهم، على ان الشاعر كان في غنى عن هذا العطاء، لأنه كان ميسور الحال ذا مال وخلال ولكنني أذهب الى ما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي، من ان الشاعر ما كان ليطمع بمال أو جاه عندما كان يتنقل بين بلاطي المناذرة والغساسنة بل كان همه ان يذوذ عن أبناء قبيلته، وأن يقف الى جانب عشيرته عند الأزمات والشدائد.

ولكن البعض لم ير هذا الرأي بل كان يعتقد ان النابغة كان الغرض الأول من مدائحه هو الكسب لا غير، قيل لأبي عمرو بن العلا: أفمن مخافة النعمان بن المنذر، أمتدحه النابغة ؟ وأتاه بعد هربه منه، أم لغير ذلك؟

فقال: لا لعمر الله، لالمخافته فعل، انه كان لآحناً من ان يوجه

---

(١) د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٢٧١.

النعمان اليه جيشاً، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (أبله)

«وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده، لا يستعمل غير ذلك».

والحقيقة ان النابغة عندما كان يمدح أو يعتذر، كان يحلق في أجواء من الأبداع، اذ كان يتخير ألفاظه، وينوع في معانيه وينمق في الصور الشعرية.

وكان ذا قدرة فذة في النفاذ الى نفس ممدوحه لأنه كان يختار الأسلوب الذي يجد له صدى في نفس الممدوح ومن مدائحه المشهورة، بائيته في مدح الغساسنة، والتي بدأها بتصوير الهموم التي كانت قد تراكمت عليه.. أذ يقول:

كلين لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

من الناس من اذا شكا اليك همومه آلمك وأتعسك، وكأنه قد نقل بتلك الشكوى همومه اليك.

ولكن النابغة يشكو آلامه وهمومه، دون أن يترك أثراً لتلك الآلام في نفي السامع أو القارىء.

فهو يطلب من زوجته أو حبيته أن تتركه دونما لوم أو عتاب فأن ما فيه يكفيه، فها هي سماؤه وقد راحت النجوم تزحف فيها زحفاً كناية عن عدم أفولها.

لقد طال ليله حتى حسبه سوف لا ينقضي، لأن النجوم التي تلوح في الأفق اول الليل ـ مازالت ماكثة ومستقرة في السماء فلن تغيب لينتهي الليل وترجع مرة ثانية في ليل آخر وها هو يرسم صورة جميلة ورائعة للجيش المنتصر أبداً الذي تصاحبه الطيور الجوارح، فهن يُحلقن فوق الجيش. ويسرن أينما يسير، يقيناً منها ـ أي الجوارح ـ ان هذا الجيش يترك لها من القتلى ما تأكل وتشبع: يقول

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبنهم حتى يفزن مغازهم
من الضاربات بالدماء الدوارب

«عصائب: جماعة: الضاربات: المتعودات على أكل اللحوم: الدوارب: المدربة»

ثم نراه يتقلب ـ بعد أن وصفهم بالشجاعة والأقدام ـ ليخلع عليهم الحلم والعقل، وان منزلتهم عند الله عظيمة، فهم لا يتوقعون ألا جزاء الله واحسانه.

لهـم شيـم لم يـعـطهـا الله غـيرهـم
مـن الجـود والأحـلام غـير عـوازب

محـلتـهـم ذات الآلـه، وديـنهـم
قـويم، فـما يـرجـون غـير العـواقب

ولا يحـسـبـون الخـير لا شر بـعـد
ولا يحـسـبـون الشر ضربـة لازب

وهكذا نره يختار صوراً قوية جارحة عندما يريد أن يصفهم بأنهم أصحاب جيوش لا تعرف الهزيمة، يختار لها ألفاظاً تناسبها قوة، ثم ينتقل الى احلالهم وعفتهم وتُقاهم، فيختار الفاظاً هادئة رزينة، ذات إيقاع ديني، ورنين روحي ونلاحظ ان سمات الحضارة واضحة على مديح النابغة فمديحه هنا يختلف عن مدائح شعراء البادية، لأن مكوث الشاعر في ديار المناذرة والغساسنة أثر تـأثيراً واضحاً في تأنقه لأختيار الأسلوب الرقيق والصور الشفافة. واذا كان شاعرنا قد تفوق في المديح من خلال الصور التي قدمناها له، فأنه بـزَّ أقرانـه من الشعراء في الاعتـذار وسبب رسوخ بـاعه في الاعتذار واضح، وهو انه كان يتردد بين ديار المناذرة والغساسنة، وكما نعلم ان هاتين الدولتين كانتـا في عداء مستمـر وحروب لا تنقطع فكان الشاعر عندما يذهب الى فئة منهم، ويمدحهم، لابد أن يهيأ نفسه ان نجد الأعتذار في مدح الفئة الأولى اذا ما انتقل الى مديح الفئة الثانية.

وهذا هو الذي فجر شعر الأعتذار في شعور صاحبنا وكان يعرف كيف يتوصل الى نفس صاحبه، وهو يعتذر اليه فيختار له من الكلام والدعاوى ما تجعله قانعاً بما يقوله.

أنظره كيف يصور ضعفه امام النعمان ـ وهو يعتـذر اليه ـ وبالوقت نفسه يُصور بأس النعمان وقوته وعزته يقول:

فـلا لـعمـر الـذي مـسحـت كـعبتـه
وما هـريق عـلى الأنصـاب من جسـد
مـا قـلت من سـيىء ممـا أتـيت بـه
إذن فـلا رفـعـت سـوطـي الى يـدي
إذن فـعـاقـبـني ربي مـعـاقـبـة
قـرّت بهـا عـين من يـأتيـك بـالفنـد
أنـبئـت ان أبـا قـابـوس أوعـدني
ولا قـرار عـلى زأر مـن الأسـد
مـهـلاً فـداء لـك الأقـوام كـلهـم
ومـا أثـمـر مـن مـال ومـن ولـد

فهذا العرض لضعفه، مشفوعاً بتوسلاته، وقسمه الغليظ بأنه ليس مذنباً، ولم يصدر عنه ما أساء الى النعمان.

كل ذلك يحرك في نفس المعتذر اليه كوامن الأشفاق والعفو.

إذن كان صاحبنا ذكياً عالماً بتقلبات النفوس، فهو دائما يضرب على الوتر المؤثر، ويختار من الأعذار النافذة الى النفوس والمؤثر فيها.

وها هو يعتذر الى النعمان عن مدحه للغساسنة في قصيدة يقول فيها:

أتاني - أبيت اللعن - إنك لُمتن
وتلك التي أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرش لي
هراساً به يُعلى فراشي ويقشب

الى أن يقول:

ولكنني كنت أمراً لي جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وأخوان اذا ما أتيتهم
أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك أصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
وإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فكما ترى إنه يعتذر للنعمان عن مدح الغساسنة، ويطرح له الموجبات التي دعته الى مدح الغساسنة، أنهم قربوه أليهم وحكموه في أموالهم، فكيف أذن لا يمدحهم.

ثم يخاطب النعمان ويقول له أنك فعلت مثل ما فعلته الغساسنة فقد قربت من مدحك وأصطفيته.

فهل قد فعلت غير الصواب ؟

إذن لماذا تلومني اذاما مدحت من أكرمني وأحسن اليَّ؟ ولكنه يعود أخيراً فيفضله على كل الملوك، بل يجعل منه شمساً وباقي الملوك كواكب، فأنى للكواكب أن تظهر والشمس طالعة؟

وأنت كذلك إذا ما ظهرت أختفت الملوك، لأن جبروتك وأقتدارك يخفي الملوك، فهم لا يستطيعون الوقوف أمامك كما ان الكواكب وضياءها يختفيان أمام ضوء الشمس .

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي «والذي لا ريب فيه أن باب الأعتذار والاستعطاف ضيق، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه الى صور طريفة ومعان دقيقة، يقوده في ذلك ذوقه الحضري الذي وضع امام عينيه ان اتصاله بالغساسنة ذنب كبير وجرم لا يغتفر في حق النعمان بن المنذر»(١)

---

(١) د . شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٢٩٢ .

أما أن في الهجاء فقد لا نجد له شيئاً يذكر، لأن النابغة كان يتمتع بخلق وإباء يحولان ما بينه وبين شتيمة الآخرين. وقد أجاب عامر بن الطفيل، وقد بلغه أنه هجاه، ونال منه؛ قال:

فأن يكُ عامر قد قال جهلا
فإن مطية الجهل السباب
فكن كأبيك أم كأبي براء
توافقك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات
من الخيلاء ليس لهن باب
وإنك سوف تحلم أو تناهى
إذا ما شبت أو شاب الغراب

فالذي نلمسه من هذا الرد، ان الشاعر كان عفيفاً بعيدا عن السباب والشتائم، بل انه ينصح من هجاه أن يكون حليماً، ولو ان الحلم بعيد عنه.

حقاً انه تهكم به وسخر منه، ولكنه لم يقزع له الهجاء كما فعل هو. وهذا يدل على رجاحة في العقل وسمو في النفس، ورصانة في العقل.

وله الى جانب هذا بعض الحكم .. منها:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه
على شعث، أيُّ الرجال المهذب

مختارات من أشعاره

المعلقة

قالها يمدح بها النعمان، ويعتذر اليه

يــا دار ميَّــة بــالـعليــاء فــالـســنــد
أقــوت، وطــال عليهــا ســالف الأمــد
وقـفـت فـيـهــا أصـيــلانــا أســائـلهــا
عيت جـوابـاً، ومــا بـالــربـع من أحــد

ثم ينتقل الى مدح النعمان له فيقول:
فــلا لـعمــر الــذي مسّحتُ كـعبتــه
ومــا هــريق عــلى الأنصــاب من جســد
مــا قــلت مــن سيء ممــا أتـيــت بــه
اذا فــلا رفــعــت ســوطــي الى يــدي
إذا فــعــاقــبــني ربي مــعــاقــبــة
قــرت بهــا عــين من يــأتيــك بــالفنــد
هــذا لأبــرأ مــن قــول قــذفــت بــه

كـــانـت نــوا فــذه حــراً عــلى الكـبــد

أنــبئــت ان أبــا قــابــوس أوعــدني

ولا مــقــام عــلى زأر مــن الأســد

لا تــقــذفــني بــركــن لا كــفــاء لــه

وإن تأنفاك الاعــداء بــالــرمــد

هــا ان ذي عــذرة إلا تــكــن نــفــعــت

فــأن صــاحــبهــا مــشــارك الــنــكــد

معاني الكلمات

أقوت: خلت: واصيلان تصغير أصلان جمع أصيل؛ الجسد: الدم الفند؛ الكذب: الرفد: العصبة.

شرح الأبيات

١ ـ يقف امام دار الحبيبة ميَّة، فيخاطبها، ولكن لا جواب لأنها خلت من الساكن، وسار عليها الزمن بحوادثه.

٢ ـ وقفت ذات أصيل أسألها عن الأيام الخوالي، تلك الأيام الحلوة، ولكنها لم تستطع جواباً، لأنه لا يوجد فيها أحد يرد على سؤالك.

٣ ـ والله الـذي يتمسح العـرب ويتبرك بكعبتـه، وبالـدماء التي أريقت على الأصنام والأوثان .

٤ ـ ما قلت من كلام يسوؤك، وان كنت كاذباً فيما أقول فأدعو الله ان يشل يداي، فلا أستطيع ان أحمل سوطي .

٥ ـ وأن يعاقبني ربي عقاباً صارماً، تقر به عيون حسـادي الذين حملوا أليك الكلام الكاذب عني .

٦ ـ كل ما قدمته من حلف وقسم لأبرأ ساحتي أمامك من كذب قذفني بهِ حسادي، وقد نزل كالنار على كبدي .

٧ ـ لقد سمعت ان أبا قابوس توعدني، وكيف لي ان أصبر على غضب الأسد وزئيره . «جعل من النعمان أسداً» .

٨ ـ لا تعاديني فلست ممن يطيق التعادي معك، وأن التف الحساد والمبغضون، يثيرونك علي .

٩ ـ ها انا أعتذر اليك، فأن نفعتني هذه العذرة وألا فسأعيش في نكد من العيش .

وقال يمدح عمرو بن الحارث حين هرب الى دمشق

١ ـ كلين لهـم يـا أميـمـة نـاصـب
ولـيـل أقـاسيـه بـطيء الـكـواكـب

٢ ـ تـطاول حـتى قـلت لـيس بمنـقض
ولـيس الـذي يهـدي الـنجـوم بـآيـب

٣ ـ وصـــدر أراح الــلـيــل عـــازب همــه
تضــاعف فيــه الحــزن من كــل جــانب
٤ ـ عــليَّ لعمــرو لفحــة بـعــد لفـحــة
لــوالــده لــيــســت بــذات عــقــارب
٥ ـ طــلاقــة قــوم في عــطايــا كــثـيرة
وأفعــال صــدق شكــرهــا غــير واجــب
٦ ـ ولا عــيب فــيهــم غــير أن سيــوفــهم
بهــن فــلول مــن قــراع الــكــتــائــب
٧ ـ لهم شيــمــة لم يعــطهــا الله غــيرهــم
مــن الجــود، والأحــلام غــير عــوازب
٨ ـ رقــاق الــنعــال طــيــب حــجــراتهم
يحــيــون بــالــريحــان يــوم الســبــاسب
٩ ـ يصــونــون أجســاداً قــديمــاً يفحهــا
بــخــالــصــة الأردان خضر المــنــاكــب
١٠ ـ ولا يحبــون الخــير، لا شرَّ بـعــده
ولا يحــبــون الشرَّ ضربــة لازب

شرح الابيات

١ ـ أتركيني وهمومي يا أميمة، فقد طال ليلي، حتى بدت الكواكب كأنها لا تتحرك.

٢ ـ لطول الليل، خامرني الشك، بأنه سوف لا ينتهي وأن الصبح بعيد، وان النجوم الأوائل، لم تعد بعد فشيّة ضمناً أوائل النجوم بالهداة، كالراعي الذي يهدي القطيع الى العشب ـ واذا لم تظهر في السماء الأولي، يعني ان الليل مستمر.

٣ ـ والليل تتجمع فيه الأحزان وتتضاعف، فلذا فالشاعر يقول لقد أرجع الليل الهموم البعيدة، وجاء بالحزن والألم من كل جانب.

٤ ـ لقد أمتاز ممدوحه بأنه أطلق العطايا في أناس كثيرين، فأفعاله صادقة، لا تنتظر الشكر ممن تحسن أليه.

٥ ـ لا عيب يشوبهم، ألا عيب واحد، هو أن سيوفهم مُثلمة لكثرة الضرب في اعدائهم، وهذا ما يسمى بالبلاغة مدح بحاشية الذم.

٦ ـ لقد خصهم الله بأخلاق لم يتفضل بها على غيرهم، فقد خصهم بالكرم والعقول الحكيمة، التي لا يمكن ان تبتعد عنهم.

٧ ـ وهنا يصف رفاهة عيشهم فلباسهم رقيق، ومسكنهم أنيق وأذا ما خرجوا في أعيادهم يلوحون لهم الناس بالزهور والرياحين وهم يحيونهم.

٨ ـ لقد أنعم الله عليهم بالنعم، وهم بأخلاقهم يصونون ويحفظون تلك الهبة الالهية، فشرفهم خالص البياض كأردانهم وأما المناكب الخضر، فهي لباس الملوك.

٩ ـ هم أناس يحسبون كل حساب للدنيا بخيرها وشرها. فهم يرون ان الخير يتبعه شر، وكذلك الشر فهو يزول.

وقال يعتذر الى النعمان ويمدحه

أتاني - أبيت اللعن - إنك لمتني
وتلك التي أهتم منها وأنصب

فبت كأن العائدات فرشن لي
هراساً به يعلي فراشي ويقشب

حلفت فلم أترك لنفسك ديبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بُلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي، أغش وأكذب

ولكنني كنت أمرأً لي جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب

ملوك وأخوان أذا ما أتيتهم
أحكم في اموالهم وأقرب

كفعلك في قوم أراك أصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبو

فـلا تـتركـني بـالـوعـيـد كـأنـني
إلي الـنـاس مـطلي بهالـقـار أجـرب
ألم تـر ان الله أعـطاك سـورة
تـرى كـل مـلك دونها يـتـذبـذب
فـأنـك شـمس والمـلوك كـواكـب
إذا طـلعـت، لم يـبـد منهـن كـوكـب
ولـسـت بمـسـتـبـق أخـاً لا تـلمـه
عـلى شعـث، أيَّ الـرجـال المـهـذب
فـأن أكُ مـظلومـاً فـعـبـد ظـلمـتـه
وإن تـك ذا عـتبـى فـمثلك يـعـتـب

شرح الابيات

١ ـ سمعت ــ وقاك الله من فعل السوء ـ بأنك لمتنبي عن كلام صدر مني، علماً انني لم أتفوه به، وقد أتعبني ما سمعت وأرهقني، خوفاً ان تصدق ما نقل اليك عني.
٢ ـ بقيت ليلي مسهوداً كأنني نائم على فراشي قد حشي شوكاً، ومن يستطع النوم على فراش من شوك؟
٣ ـ أنى أقسم بأغلظ الايمان وهو الله سبحانه وتعالى فليس بعد الله من قسم آخر يذهب اليه المرء.

٤ ـ أذاسمعت عني بأنني قد خنت العهد، وتنكرت لمعـروفك، فلتتأكد بأن الذي نقل لك ذلك إنما هو أكذب خلق الله، وأكثرهم إمعاناً في غشك وتضليك، لأنه يحاول ان يظهر لك الصديق، في لباس عدو.

٥ ـ ولكن كل ما في الأمر،إنني كنت أجوب الأفاق وأقـطع الأرض لزيارة بعض الأخوان.

٦ ـ هم ملوك وأصحاب نجدة وكرم، فاذا ما نزلت عليهم ضيفاً، قربوني الى نفوسهم، وحكموني في أموالهم، فآخذ منها ما أشاء.

٧ ـ كما فعلت أنت مع قـوم، قربتهم اليـك، واجزلت لهم العطاء، فمدحوك واثنوا عليك، فهل هم مقصرون أو مذنبون في ذلك! -

٨ ـ ان تهديدك ووعيدك نفر الناس عني وأبعدهم وكأنني مصاب بالجرب يتحاشاه الناس، ويبتعدون عنه.

٩ ـ لقد وهبك الله المهابة والسطوة على باقي الملوك حتى لتراهم يهابونك، ويكاد الواحد منهم يرتجف خوفاً من سماع أسمك.

١٠ ـ فأنت بالنسبة لهم كالشمس، فاذا ما برزت لهم لم يستطيعوا الوقوف أمام قوتك، كالنجوم فانها تختفي أذا ما ظهرت الشمس.

١١ ـ هبني إنني أخطأت، فهل هنـاك من لا يخطأ؟ فنحن أبنـاء الخطيئة، من الرجال الذي لم تزل به رجله في حياته.

١٢ ـ فاذا ما صدقت قول الحساد وظلمتني ، فأنما انا عبد ومن حق السيد ان يصنع بعبده ما يشاء. واذا اردت ان تعتب عليَّ فحقك ان تعتب

لم اشرح الكلمات التي وردت في القصيدة، لأنني شرحتها من خلال شرحي للأبيات، علماً ان الكلمات واضحة.

ولم أتطرق لقصة المتجردة، لأن من كتبوا عنها قديماً وحديثا أنكروا ان تكون الجرأة قد بلغت بالشاعر ان يتغزل هـذا الغزل الفاحش بزوج النعمان أنكر ذلك الجاحظ وابن سلام في كتابيهما الحيوان. وطبقات فحول الشعراء، كما فعل ذلك شوقي في ضيف في الشعرالجاهـلي: وغير هؤلاء، فرأيت ترك القصة، التي حيكت - ضد الشاعر، لأن ذكرها لا جدوى منه.

ومن قصيدته في وصف المتجردة يقول

أمـن آل مـيَّـة رائـح أم مغتدي
عـجـلان ذا زاد وغـير مُـزود
لا مـرحـبـاً بـغـد ولا أهـلا بـه
ان كـان تـفـريـق الأحـبـة في غـد
سقط الـنـصـيـف ولم تُـرد إسقـاطـه
فـتـنـاولـتـه، وأتـقـتـنـا بـالـيـد
بمـخـضـب رخص كـأن بـنـاتـه
عـنـم عـلى أغـصـانـه لم يـعـقـد

نـظرت إلـيـك بـحـاجـة لم تـقـضـهـا
نـظر الـسـقـيـم الى وجـوه الـعـود
زعـم الهـمام بـأن فـاهـا بـارد
عـذب مـقـبـلـه شـهـي المـورد
زعـم الهـمام، ولم أذقـه أنـه
عـذب أذا مـا ذقـتـه قـلـت أزدد
زعـم الهـمام ولم أذقـه أنـه
يشفي بـريّـاً ريقهـا العـطش الصـدي
لـو انها عـرضـت لأشـمـط راهـب
يخشى الألـه صرورة مـتـعـبـد
لـرنـا لـرؤيـتهـا وحـسن حـديثـهـا
ولخـالـه رشـداً وإن لم يـرشـد

شرح الابيات

١ ـ كثيراً ما تذهب ـ وأنت مسرع ـ وتأتي لزيارة ديار ميَّة، سواء أكنت متزوداً بما يسد عليك رمقك، أم غير متزود بأي زاد فاللهفة لزيارة ديارها جعلتك تتردد عليها كثيراً.

٢ ـ لا أهلا باليوم الذي يكون فيه فراق الأحبة.

٣ ـ سقط خمارها عن وجهها دون أن تريد ذلك، فردته على وجهها، بعد أن أبعدتنا عنها.

٤ ـ بكف مخضب لِدنٍ كأنه ثمرٌ طرى مازال على أغصانه لم يقطف بعدُ .

٥ ـ كانت ترنو اليك بلهفة وشوق ورغبة نظر الانسان المريض الى من يعودونه ويزورونه .

٦ ـ لقد أدعى النعمان بأن فاها مورد عذب ، وكل يشتهي تقبيله .

٧ ـ وقد زعم كذلك بان ريقها يروي العطش الذي لم يذق الماء منذ فترة .

٨ ـ أما الذي يذوق رضا بها مرة فأنه يتمنى ان يذوقه مرات أخرى لحلاوته ولنكهته الطيبة .

٩ ـ لو رأها راهب عجوز قد أنفرد لعبادة الأله ، لم يتزوج إمعاناً في العبادة .

١٠ ـ لصبا لحسنها وحلو كلامها ، ولحسبه رشداً وصلاحاً والمعنى ان جمالها ينسيه عبادته .

وقال متغزلا

عُـوجـوا فـحيـوا لـنعـم دمنـة الـدار
مـاذا تحـيـون مـن نـؤىٍ وأحـجـار
فـاستعـجـمت دار نـعـم لا تـكـلمنـا
والـدار لـو كـلمـتـنـا ذات أخـبـار
وقـد أراني ونـعـماً لأهين بهـا
والـدهـر والـعيش لم يهـمم بـإمـرار

أيام تخبرني نعم وأخبرها
ما أكتم الناس من حاجي وأسراري
لولا حبائل من نعم علقت بها
لأقصر القلب عنها أي إقصار
فإن أفاق، لقد طالت عمايته
والمرء يخلق طوراً بعد أطوار
نبئت نعماً على الهجران عاتية
سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري
رأيت نعماً، وأصحابي على عجل
والعيش للبين قد شدت بأكوار
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها
لم تؤذ أهلا، ولم تفحش على جار
ألمحةً من سنا برق رأى بصري
أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار ؟
بل وجه نعم بدا، والليل معتكر
فلاح من بين أثواب وأستار

شرح الابيات

١ ـ قفوا لنسلم على ديار نعم، ولكن على أي شيء نسلم؟ فلم يبق منها ألا الاثار والاحجار.

٢ ـ لم تنبس دار نعم ببت شقة، ولو تكلمت، لأخبرتنا عن تلك الأوقاق الحلوة، التي قضنياها في ربوعها.

٣ ـ أيام كنا نلهو أنا ونعم والدهر ضاحك والعيش حلو لم ينقض ولم يمر.

٤ ـ كنا نتسار فيما بيننا تقول لي اسرارها، وأقول لها اسراري بينما نخفي اسرارنا وكلامنا على الغير.

٥ ـ لولا تلك الذكريات الحلوة، وذلك الحب الذي علق بنفسي منها لسلاها القلب، ونساها.

٦ ـ هلا أنتهيت من هذا الحب ؟ والحياة متغيرة لا تبقى على وتيرة واحدة

٧ ـ لقد سمعت أن نعماً تعتب عليَّ لأنني هجرتها، فأنني أرعى بروحي ذلك العاتب، الذي يُزري بي.

٨ ـ لقد تحققت بالنظر الى نعم، بينما كنت وأصحابي على عجل من أمرنا، وقد تهيأت الجمال للرحيل، والبعاد عن نعم.

٩ ـ هي بيضاء كأنها الشمس وقد برزت في سماء صافية لا غيم فيها هي ذات أخلاق ووداعة، لم تسيء لقريب، ولم تؤذ جاراً

١٠ ـ ماذا أرى، أوجه نعم ما أرى، أم ضياء.

١١ ـ الحقيقة ان وجه نعم قد ظهر في ليل داج، فانبلج الضياء منه، وقد بدا كأنه يلوح من بين السماء.

وقال مفتخراً

١ - مـا بـال عينيـك لا تهجـع كـأن الـسـهـاد بهـا مـولـع
٢ - وذلـك مـن نـبـأ جـاءني بـأن زيـاداً لـنـا تجـمـع
٣ - يخصّ إلـيـنـا بـأيـعـاده كـأن الـدلـيـل لـنـا مصرع
٤ - فـأوعـد رويـداً فـأن تلقني تـدع كـل مـا أنـت مستفـزع
٥ - وتـلق وأمـك ذا نـجـدة جمـيـع الـسـلاح أذاً يـفـزع
٦ - عـليَّ دلاص قـد أختـارهـا سـليم بـن داود إذ يـصـنـع
٧ - وأبـيض كـالملح ذو رونـق إذا عضّ في مـعـصـم يـقـطع
٨ - وجمعته فـوق عبـل الشوى سـليم الـقـوائم لا يـضـلـع

شرح الابيات

٣ - يخصنا بوعيـده، كأنه مُستيقن من أنه قادر علينا

٤ - فليكن وعيدك خفيفاً، لأنك عندما ستجابهني، ستترك كل ما بدأت به من كلام.

٥ - وسوف تلقى رجلا قويا ذا نجدة، سيفزع منه السلاح قبل ان تفزع منه الرجال.

٦ - على صدري درع ملساء لينة، عملها لي صانع حاذق ماهر.

٨ - وجمعت هذا السلاح فوق حصان قوي القوائم «عبل الشوى غليظ القوائم» لا عيب في قوائمه فيضلع.

وهذه الأبيات من بديع إعتذارياته

وعـيـد أبي قـابـوس في غـير كـنهـه
أتـاني، ودوني راكس فـالـضـواجـع
فـبـت كـأني سـاورتـني ضـيئـلة
من الـرقش، في أنيـابهـا السم نـاقـع
تناذرها الـراقـون من سـوء سمهـا
تـطلقـه طـوراً، وطـوراً تـراجـع
أتـاني - أبـيـت الـلعن - إنـك لمـتـني
وتـلك الـتي تـسـتـك منهـا المسـامـع
حـلفـت فـلم أتـرك لـنفـسـك ريـبـة
وهـل يـأثـمـن ذو أمـة وهـو طـائـع
لـكـلفـتـني ذنـب إمـرىء وتـركـتـه
كـذي العُـرِّ يُكـوى غـيره، وهـو راتـع
فـإن كـنت لا ذو الـضغـن عن مـكـذب
ولا حـلفـي عـلى الـبراءة نـافـع
ولا أنـا مـأمـون بشيء أقـولـه
وأنـت بـأمـر - لا محـالـة - واقـع
فـأنـك كـالليـل الـذي هـو مـدركي
وإن خـلت ان المـتـأى عـنـك واسـع
أبى الله إلا عـدلـه ووفـاءه
فـلا النكـر معـروف ولا العـرف ضـائـع

شرح الأبيات

١ ـ وصلني وعيد أبي قابوس، في غير حقيقته، لأني لم أقل فيه شيئاً من شأنه أن يتوعدني.

٢ ـ فبتُّ ليلتي في ذعر، كأن حية مسمومة قد لدغتني لأن تهديده جعلني خائفاً قلقاً.

٣ ـ أصحاب الرقى والدواء شرعوا يخوف بعضهم البعض من سمها القتّال، الذي تطلقه طوراً، وترجعه.

٤ ـ سمعت ـ لا أتيت فعلا تلعن عليه ـ **بأنك لمتني**، وهذا ما آلمني، بحيث لا أريد سماعه.

٥ ـ ها آنذا أقسم حتى لا أترك في نفسك شكا، وصاحب الدين يأثم، أذا حلف وهو طائع. «أمّة: الدين»

٦ ـ أأحمل ذنب الآخرين؟ أذن سيكون شأني شأن الأبل السليمة، التي تكوى حتى لا ينتقل الجرب اليها من الأبل الجرباء، «العر: الجرب»

٧ ـ فأن كنت لا تكذب الحسود ولا تصدق قسمي، ولا ما أقوله وأدعيه مصدقاً، فآمن به على نفسي وأنك مصمم على تهديدي ولومي.

٨ ـ فسوف يدركني تهديدك كما يدرك الليل النهار وان حسبت انني بعيد عنك.

٩ ـ ويأبى الله ألا أن ينشر عدله، فالمنكر سوف يختفي والمعروف سوف لا يضيع.

وقال متغزلا

علقت بـذكـر المـالـكـيـة بـعـدمـا
عـلاك مـشـيـب في قـذال ومـفـرق
إذا غـضـبـت لم يـشـعـر الحـيُّ إنها
غضـوب، وإن نـالـت رضى لم تـزهـزق
عـلى ان حـجـلـيـهـا، وإن هـن أوسـعـا
يمـوتـان مـن مـلء وقـلـة مـنـطق
إذا أرتـفـعـت هـاب الجـبـان رعـاثـهـا
ومـن يـتـعـلق حـيـث عـلق يـغـرق
وأن ضـحـكـت لـلـعـصـم ظـلـت روانـيـاً
إلـيـهـا، وان تـبـسـم الى المـزن يـبرق

شرح الابيات

١ ـ هل أحببت المالكية، بعد ان كبرت، وعداك المشيب
٢ ـ لا يظهر عليها الغضب ان غضبت، ولا تتمادى في الضحك اد.
هي نالت ما تريد زتزهزق ـ تضحك عالياً»
٣ ـ إن خلخالها مع سعته، يتلبد كالميت لا يتحرك، يريد ان ساقيها
ممتلئتان

٤ ـ أذا ما وضعت القرط في إذنها، هاب الجبان ان يتعلق به، وهذا كناية عن طولها.

٥ ـ واذا ما أبتسمت للغزلان، ظلت ترنو الي بسمتها العذبة، واذا ما ضحكت الي المزن برفق أستجابة منها لتلك الضحكة المنورة.

قال يرثي النعمان بن الحارث

دعاكالهــوى وأســتجــهلتــك المــنــازل
وكيف تـصــابي المــرء والشـيـب شــامــل

ثم ينتقل الى الرثاء فيقول

يـقــول رجــال يـنــكــرون خـلـيـقــتي
لــعــل زيــاداً ـ لا أبــا لــك ـ غــافــل
أبىٰ غــفــلتي إني اذا مــا ذكــرتــه
تحــرك داء في فــؤادي داخــل
فــأن كــنــت قــد ودعــت غــير مــذمم
اواسي مــلــك ثبتته الأوائــل
فــلا تــبــعــدن، ان المــنــيــة فهــل
وكــل أمـرىء يــومـاً بــه الحــال زائــل

فـما كـان بـين الخير لـو جـاء سـالمـاً
أبـو حـجـر إلا لـيـال قـلائـل
فـان تحـي لا أمـلل حـيـاتي وان تمت
فـما في حـيـاةٍ بـعـد مـوتـك طـائـل
سقىٰ الغيث قبـراً بـين بصـرىٰ وجـاسم
ثـوىٰ فـيـه جـود فـاضـل ونـوافـل
بـكىٰ حـارث الجـولان من فـقـد ربـه
وحـوران مـنـه مـوحش مـتـفـائـل
سـجـوداً لـه غـسـان يـرجـون أوبـه
وتـرك ورهط الأعـجـمـين وكـابـل

شرح الأبيات

١ ـ لما رأيت منازل الأحبة، حرك فيك الهوىٰ ميلا أليها. ولكن ما لك ان تتصابى،وقد أحتواك الشيب؟
٢ ـ لقد تعجب من سكوتي وهدوئي الرجال، فهم يقولون أترىٰ زياداً ـ وهو اسم الشاعر ـ غافلا عن هذه المصيبة، وهي وفاة النعمان بن الحارث.
٣ ـ ولو يراني البعض بعيداً عن هذا المصاب، ولكني كلما ذكرته آلمني داء كمن في قلبي واستقر من هذا المصاب.

٤ ـ لقد ودعت أصول ملك، والكل يثني عليك ـ وقد ثبت أجدادك أصول ذلك الملك.

٥ ـ لا أبعد الله ذكرك الطيب عنا، ان الموت مشرب ولابد ان تشربه كل الخلائق.

٦ ـ لو جئتنا سالماً معافىٰ، لجاء الخير كله معك، ولكن كل سمات الرفاهية ذهبت معك.

٧ ـ في حياتك لا يملُّ المرء عيشه، لما تخلعه من خير عليه وأما وقدمت، وفارقت الحياة، فلا خير في الحياة بعدك.

٨ ـ سقىٰ الله موضعاً ضم قبرك «بصرى وجاسم موضعان في الشام» فلقد ثوىٰ الجود والفضل في المكان الذي ثويت فيه

٩ ـ بكاك كل من أفتقدك، صاحب الجولان، ومناطق حوران أصبحت موحشة بعدك

١٠ ـ الكل منتظر ايابه ، العرب والترك والاعاجم، لما فيه من فضائل تتمناها كل هذه الشعوب

إراد النابغة الدخول على النعمان، وهو مريض، فمنعه الحاجب «عصام» بن شهيرة، فقال

ألم أقسم عليك لتخبرني — أمحمول على النعش الهمام

فأني لا ألومك في دخول — ولكن، ما وراءك يا عصام

فأن يهلك أبو قابوس يهلك — ربيع الناس والبلد الحرام

ونمسك بعده بذناب عيش — أجبِّ الظهر ليس له سنام

(الأبيات سهلة وواضحة لا تحتاج الى شرح)

قال يصف حيَّة

صلٌ صفا لا تنطوي من القصر
طويلة الاطراق من غير خفر
داهية قد صغرت من الكبر
كأنما قد ذهبت بها الفكر
مهروتة الشدقين حولاء النظر
تَفْتَرُّ عن عوج حداد كالإبر

أنه لوصف دقيق للصلِّ، الحية القصيرة، فهي لصغرها لا تنطوي كما تنطوي على نفسها باقي الحيات، تبقى طويلا في مكانها دونما حركة انها لمصيبة من المصائب، فهي ما صغر حجمها ألا لما أنطوى عليها جسمها من سم قاتل، حتى حار الفكر في أمر هذا الحيوان. لقد أتسع فمها وأصيبت بالحول، وهذا أدق وصف لرأس الأفعىٰ، اما أسنانها فهو عوج ماضيه كأنها رؤوس الأبر.

وقال يمدح عمرو بن هند، وكان غزا الشام

أتاركة تدلـلها قطام رضينا بالتحية والكلام
فأن كان الدلال فلا تلحي وإن كان الوداع فبالسلام

فلو كانت غداة البين منت   وقد رفعوا الخدور على الخيام
لغزت بنظرة فرأيت منها   وقد رفعوا الخدور على الخيام
ترائب يستضيء الحلي فيها   كجمر النار يُزري بالظلام
كأن الشذر والياقوت منها   على جيداء، فاترة البغام
فدعها عنك اذ شطت نواها   ولجت من بعادك في الضرام

ثم أنتقل الى ممدوحه

ولكن ما أتاك عن أبن هند   من الحزم المبين والتمام
يُغير على العدو بكل طرف   وسهلية تجلل في السهام
فهمً الطالبون ليدركوه   وما راموا بذلك من مرام
الى صعب المغارة منذرىٌّ   نماه في فروع المجد نامي
أبوه قبله، وأبو أبيه   بنوا مجد الحياة على إمام
فدوخت العراق،فكل حصن   يُحلل خندق منه وحامي

١ ـ قطام : أسم أمرأة
٢ ـ الخدور : الستائر
٣ ـ الترائب : موضع القلادة
٤ ـ جيداء : غزالة : البغام : صوت الغزالة
٥ ـ سهلية : الفرس الشديدةالعظام : الطويلة

ومن حكمه؛ قوله

المرءُ يأمل ان يعـ ـيش، وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مُره
وتخونه الأيام حتـ ـى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي ان هلكـ ـت، وقائل لله دره

وقال

فتى تم فيه ما يسر صديقه
على أن فيه ما يسوء المعاديا
فتى كملت أخلاقه غير أنه
جواد فما يبقى من المال باقيا

وقال
إذا أنا لم أنفع خليلي بوده
فأن عدوي لا يضرهم بغضي

وقال
نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكاً هماما
حتى علا وجاوز الأقواما

وقد خرج هو وزياد بن سياد يريدان الغزو، ولكن صاحبه رأى جرادة فتطير، ورجع، أما صاحبنا فغزا وغنم، وعندما رجع قال أبياته هذه مهاجماً الطيرة

يلاحظ طيرة أبداً زياد
لتخبر، وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد
أشار له بحكمته مشير
تكلم إنه لا طير إلا
على متطير، وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء
أحايينا، وباطله كثير

شرح الابيات

الطيرة: التخوف من توقع كارثة دونما مبرر لذلك

يقول: ان زياداً دائم التهيب والتخوف، من أشياء يتوقع أنها ستخبر بأشياء، ولكنها في الواقع لا تخبر بشيء وأنه متأكد من ظنونه تلك، حتى إنه ليعتقدها وكأن لقمان الحكيم قد أخبره بذلك.

والواقع ان الطيرة أنما هي هلاك وبلاء على صاحبها لأنها وهم ليس ألا.

ولكن قد يتحقق أحياناً بعض منها. وذلك مصادقة، أما أكثرها فباطل.

لما اراد النعمان غزو بني حُنٍّ، نهاه النابغة عن ذلك، وأخبره أنهم قوم من الصعب أذلالهم. ولكن النعمان أبى ألا ذلك. فلما غزاهم هزموه، فأنشد النابغة يقول

لقد قلت للنعمان يوم لقيته
يريد بني حُنٍّ، ببرقة صادر
تجنب بني حُنٍّ، فأن لقاءهم
كريه، وان لم تلق الا بصاير
هم منعوا وادي القرى عن عدوهم
بجمع مُبيد للعدو المكاثر
وهم ضربوا أنف الغزاري بعدما
أتاهم بمعقود من الأمر قاهر
وهم منعوها من قضاعة كلها
ومن مضر الحمراء عند التغاور
وهم قتلوا الطائي بالحجر عنوة
أبا جابر، وأستنكحوا أم جابر
أتطمع في وادي القرى وضبابه
وقد منعوا منه جميع المعاشر

معاني المفردات

بني حُنٍّ: عشيرة تنتسب الى ذبيان: برقة صاد: موضع

جُير: مهلك مفني

شرح الأبيات

١ ـ لقد نصحت النعمان أن لا يمس بني حُنٍّ، وأن لا يقترب منهم لأنهم قوم ليس من السهل خضوعهم وأذلالهم

٢ ـ ان لقاءهم تكرهه الأبطال لأنهم قد تعودوا على القتال لا يجزعون ولا يملون النزال، فهم صابرون عند البلاء

٣ ـ لقد هيأوا أنفسهم، ونزلوا على وادي القرى ـ وهو وادي بين تيماء وخبير، وفيه قرى كثيرة، وغلبوا أهله، وظلوا يدافعون عنه بجموع كثيرة.

٤ ـ لقد أرغموا الفزارى، وأخذوا ما عنده وعند قومه من أرض ذات نخيل وأعناب، بعد ان واجههم بجيش قاهر فكانوا في كل كرب هم الغالبون.

٦ ـ أبو جابر هو الجلاس بن وهب وكان رئيساً في قومه حتى هذا قتلوه وسبوا نساءه

٧ ـ أبعد كل هذا، وكل ما سمعت من بلاء هؤلاء القوم تطمع فيهم، وتريد الإغارة عليهم. طمعاً في وادي القرى وقد منعوه عن أقوام قبلك..؟

خاتمة

لقد حاولت جاهداً، ان أعطي صورة واضحة عن النابغة وشاعريته، والعصر الذي عاش فيه، والظروف التي مرت بهحتى جعلته يتنقل ما بين إمارتي المناذرة والغساسنة. ولكن الغريب في الأمر، ان هذا الشاعر الفذ، الذي كان حريصاً كل الحرص على سلامة قبيلته، يذوذ عن حياضها ويحاول أن يدفع عنها كل أذى يصيبها.

نجد هذا الشاعر يسكت السكوت كله عن حرب عبس وذبيان هذه الحرب التي طالت وذهبت ضحيتها الآلاف من الرجال لماذا لم يقف الى جانب قبيلته ذبيان في هذه الحرب، لماذا لم ينافح عنها ؟

لماذا لم يخوضها حرباً كلامية يحاول منْ خلالها ان يبث روح المقاومة والنضال في نفوس الرجال من قبيلته ؟

لماذا لم يهاجم قبيلة عبس، ليفتر حماسها، وبالتالي تضعف مقاومتها، فتكون الغلبة لقبيلته ؟

لماذا لم يفعل ذلك كما كان يفعل الشعراء في كل قبيلة ؟

إننا لو تصفحنا ديوانه، لم نجد ذكراً فيه لتلك الحرب الضروس فكيف أذن نعلل موقف الشاعر ؟

قال بعضهم إن أنشغال الشاعر بالسفارة لقومه عند المناذرة وبعدها إمارة الغساسنة، هو الذي أنساه تلك الحرب.

يقول الدكتور شوقي ضيف، في كتابه «العصر الجاهلي»

«ونعتقد ان سفارته لقومه في بلاط المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره الى حروب داحس والغبراء» قد يكون هذا عامل من عوامل أخرى جعلته يتحاشى الاشتراك في خضم هذه الحرب الضروس.

..... منها؛ ان شاعرنا كان يميل بطبعه الى السلام وينفر من الحرب وكان يتمنى ان يرى الأجواء صافية بين جميع القبائل.

كان شاعرنا ينتمي الى جماعة زهير، تلك الجماعة التي سحرت كل قواها لإخماد كل الحروب التي كانت تقوم بين قبائل العرب لأن هؤلاء - كما أشرت من قبل - قد تزودوا بالتعاليم الدينية التي شاعت في الجزيرة، وخاصة الديانات الموحدة.

وقد ورد في أشعارهم ذكر الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وغير ذلك من صفات الله.

لهذا فقد أنزوى النابغة بعيداً عن أجواء تلك الحروب التي كانت تثار ما بين القبائل، فلم نسمع منه بيتاً من الشعر فيها وكانت نفسه تأبى عليه أن يكون سبباً في إثارة الحروب أو ان يكون عاملا في أستمرارها، لهذا أنكفأ على نفسه يجتر آلامها، لما أصاب قومه من دمار وهلاك. على عكس ما كانت عليه العادة في العصر الجاهلي،

من أن شاعر القبيلة كان أول من يقوم منادياً للقتـال، ومشجعاً رجـال القبيلة على خـوض غمرات الحـروب، مُلهبـاً فيهم روح النجدة والحماس .

ان أخلاق الرجل وشعره يدلان على ذلك .

فالنابغة أذن كان يرى في هذا السلوك حفظاً لقوة العرب من التشتت، وحقناً لدمائهم، وان يوفروا تلك القوة وتلك الدماء إذا دعاهم الأمر لمقاتلة اعدائهم، الذين كانوا يتربصـون بهم خارج الجزيرة العربية .

على هذا الشكل كانت أخلاق الكثيرين من العرب، قبل أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسوله (ﷺ)

إن الله سبحانه وتعالى كان قد هيأهم . دينياً ونفسياً وعقلياً لحمل رسالة السماء التي جاء بها نبيه محمد (ﷺ)، وفعلا لقد حملوها بكل أمانة وأقتدار، وزرعوها في أنحاء المعمورة آنذاك فكان ثمارها الأيمان والتوحيد والاسلام في كثير من أرجاء الدنيا آنذاك .

أما ما قيل من أن سبب ابتعاده عن الحرب بين قبيلته وقبيلة عبس هو سفارته بين إمارتي الحيرة وغسان، فأظن ان هذه السفارة لم تكن الحاجز الوحيد، التي حالت ما بين شاعرنا وبين دفاعه عن قبيلته والذود عن حياضها، وهي تخوض تلك الحرب .

ولكن الذي جعله يحجم عن ذلك هو ما كان يشعر به من مرارة جراء هذه الحرب، التي طالت، وذهبت بالرجال، بل بخيرة

الرجال سبباً في تأجيج تلك الحرب وإطالة إمدها.

وثمة أمر آخر، ان النقاد أعتبروا النابغة من الشعراء المتكسبين بالشعر، لأنه كثير التجوال ما بين بلاطات الملوك، وأقبية الأمراء، يمدح هذا، ويخلع على الآخر صفات الفروسية والشجاعة والكرم حقاً إنه كان يفعل ذلك، وبالطبع، أنه كان ينال على مدائحه تلك الجوائز السنية، والهبات من ملوك المناذرة والغساسنة حتى قيل انه كان يتخذ أوانيه من الذهب والفضة، وذلك لكثرة ما ناله من هبات وأعطيات.

والمتكسبون في أشعارهم - في نظري - هم أولئك الشعراء الذين كانوا يقفون الأيام، بل الشهور على أعتاب الخلفاء والأمراء وأبوابهم، ينتظرون الفرصة أن تسنح لهم بعد أن تفتح أمامهم أبواب الخلفاء ليقدموا اليهم مدائحهم.

ومنهم من يعرض شعره على الرائح والغادي، علّه يصيب من هذا العرض ما يعود عليه بالنفع، مثل هؤلاء المتهالكين يحق لنا أن نطلق عليهم أسم «المتكسبين» فهؤلاء جعلوا الهدف الأول من أشعارهم الربح والكسب. وكانوا يتسابقون للمثول أمام ممدوحيهم، وكل واحد منهم كان يحلم بالجائزة على مديحه. ولكن هل يحق لنا أن نطلق على المتنبي متكسباً؟

علماً انه كثيراً ما مدح، ونال على ذلك المديح الأموال الطائلة هل يحق لنا ان نصف الشاعر العظيم بهذا الوصف؟

لم نسمع أحداً من مؤرخي الأدب أو النقاد قد قال عن المتنبي أنه كان متكسباً، لأن ممدوحيه كانوا يستبشرون خيراً أذا ما أتجه اليهم وخصهم ببعض مدائحه. بل أستطيع ان أقول أن ممدوحيه كانوا يتكسبون بمدخه لهم، فهم يكسبون المجد والخلود من مدائحه.

لقد عرفت الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع الميلاديين حركات لم تعهدها من قبل.. حركات دينية، وتكتلات سياسية، إذ بدأت فكرة الوحدة السياسية تتبلور في نفوس سكان هذه الجزيرة فقد عرفت أرض الجزيرة عبادات شتى، فقد أستقرت عبادة التوحيد التي زرعها ابراهيم الخليل عليه السلام في نفوسهم ولو ان بعض الباحثين قد تجنوا على العرب واعتبروهم وثنيين وعبدة أصنام وأوثان، نعم كانت كعبتهم غاصة بالأصنام هذا لا يُنكر، ولكنهم قد أتخذوا هذه الأصنام وسيلة الى الأله الواحد، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك.

كما عرفت عبادة الشمس والقمر في اليمن، يقول أدليري في كتابه «الجزيرة العربية قبل محمد (ﷺ) ان العُزى يمثل كوكب الزهرة، واللات رمز للشمس. وكانت الشمس هي آلهة سبأ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك على لسان الهدهد يقول تبارك وتعالى

﴿**وجدتُها وقـومها يسجـدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل، فهم يهتدون**﴾(١)

ومن أسمائهم عبد شمس. وعبد العزى.

وكان قسم من العرب على مذهب الماديين، وقد أشار القرآن الكريم أليهم بقوله ﴿**وما هي ألاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا ألاّ الدهر**﴾

هذا الى جانب الموحدين من أصحاب الديانتين المسيحية واليهودية، وحركة الاصحاف التي كان اصحابها يعبدون الله على دين ابراهيم.

اذن، كانت هناك أرهاصات بقيام حركة دينية اصـلاحية هدفها تغيير نظام الحياة في هذه الجزيرة، ذلك النظام الطبقي الذي خلف وراءه جيوشاً من العبيد والمستعبدين المستغلين الفقراء الذين أعتنقوا الإسلام حالما أعلنه الرسـول (ﷺ) من ان أبا لهب يُعيِّر الرسول (ﷺ) بأنه نبي المساكين فأطلق المعلم الأكبر تلك الصرخة المدوية، التي هزت كيان النظام الأجتماعي والسياسي الذي كان مخيماً على مكة عندمـا قال (ﷺ) «اللهم أحييني مسكينـاً، وأمُتني مسكيناً، وأحشرني مع المساكين» كانت الحاجة ماسـة الى مشعل ليضيء تلك الظلمات التي رانت على الجزيرة، بل على العالم كله، فأوقد الله سبحانه وتعالى ذلك المشعل ممثلا برسالة رسوله الخالدة التي حملها أياه لينطلق بها عبر أرجاء العالم مبشراً ونذيراً.

أذن، نستطيع القول ان كل ما ذكرناه آنفاً كان مخاضاً لميلاد الرسول، ودعوته العظيمة، التي أستوعبت كل ما كان يـدور في خلد المجتمع العربي الكبير آنذاك.

أردت بـذلك ان أؤكـد ان جنوح أخـلاق بعض الشعراء والـرؤساء الى الحكمـة، والايمان المطلق بـآلـه واحـد والتبشـير بالسلام، ودعوة العرب الى الاتحاد، كان ثمـرة لتلك الحركـات الجديدة التي عمت الجزيرة العربية.

فزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن أبي ربيعة، وشاعرنا النابغة وأضرابهم، كانوا عبارة عن إرهاصات بقيام تلك الثورة الاسلامية الكبرى، التي أختار الله نبيه محمداً (ﷺ) فلو قـرأنا زهـير، وما أنطوت عليه اشعاره من حكم وأشارات دينية وأخلاقية، لظننا إننا أمام شاعر اسلامي لا جاهلي فهو يثني كل الثناء على من أطفأ نار الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان، ويجيد كل الاجادة في تصوير مآسي تلك الحروب وما تخلفه لنا من أيتام وأيامى وأمهات ثاكلات.

أما الشاعر لبيد، فأن أشعاره تطالعك بين الفينة والفينة بقيم دينية تحمل في ثناياها التوحيد.

أما النابغة الذبياني ـ فكما أشرنا سابقـاً ـ أنه يقف مـوقف المحايد امام حرب داحس والغبراء، ولو أن قبيلته ذبيان كانت طرفاً في ذلك القنال.

كان الكل ينتظر ان شيئا ما سيحصل في الجزيرة العـربية

روى صاحب الأغاني «روى ان زيد بن عمرو بن نُفيل، مرَّ بأمية ابن أبي الصلت فقال له؛ يا باغي الخير هل وجدت؟

قال لا، ولم أوتِ من طلب، قال؛ أبي على الكتاب إلا انه منا أو منكم، أو من أهل فلسطين» إذن كانوا ينتظرون الفرج من السماء، فلم تخيب السماء ظنهم بها فارسلت لهم رسول الله محمد بن عبدالله (ﷺ) منقذاً ومفرجاً عنهم كربهم. لهذا عندما جاهر الرسول (ﷺ) بدعوته وجد النفوس مهيأة لتقبل تلك التعاليم السماوية، والعيون مبصرة لذلك النور الآلهي الذي أنبثق لينعم الكون بأسره.

وهكذا يبدو جلياً، إن عقيدة التوحيد كانت مغروفة في الجزيرة وشائعة على ألسنة الشعراء والخطباء، ولكنها كانت مشتتة غير منظمة حتى هيأ الله لها محمداً (ﷺ) فأستوعبها استيعاباً كاملا، فاستجمع منها الطيب والمفيد، أما الخبيث والضار فحاربه حتى قضيًّ عليه.

لقد هيأ الله سبحانه وتعالى أمة العرب للاسلام، قبل أن تعلن دعوته في الجزيرة. حتى أذا ما انبثق فجر الاسلام في الجزيرة، حمل رايته أناس كانوا مهيأين من قبل لحمل الراية والانطلاق بها في أرجاء المعمورة آنذاك.

أعود ثانية فأقول: ان صاحبنا النابغة الذبياني هو واحد من أولئكم الذين كانوا قد أعدوا لحمل الراية. ولو قدر لصاحبنا ان يعيش الى وقت الدعوة الاسلامية لكان احد الذائدين عنها، دون أدنى شك.

وهكذا كان شأن النابغة، فكما كان المتنبي صاحب قضية قد أتخذ من الشعر غرضاً للوصول اليها، فان النابغة كذلك قد أتخذ من الشعر وسيلة للدفاع عن قبيلته التي حمل همومها.

فهو عندما أتصل بالمناذرة، وتفرغ لمديح ملوكهم، كان الهدف من هذا أن يكون ممثل قبيلته في بلاط المناذرة ليسترضيهم وبالتالي ليبعد آذاهم عن قومه.

وعندما توجه شاعرنا نحو الغساسنة كان هدفه الأول ان يُهدأ من روع الغساسنين تجاه رجال قبيلة الذبيانيين، الذين دخلوا في حرب مع الغساسنة، وتركوا الكثيرين من الأسرى عندهم فلما توجه اليهم النابغة أحتفوا به أيما أحتفاء، واستقبلوه أستقبالا يليق بمكانته الشاعرية، وإكراماً لزيارته أطلقوا جميع الاسرى الذبيانيين.

فهل الذي يستقبل هذا الاستقبال من طرف الملوك، ويحتفى به هذا الأحتفاء يُعتبر متكسباً بشعره:

إنني لا أعتبر النابغة ولا المتنبي من المتكسبين بأشعارهما، لأنهما لم يجعلا الهدف الأول من شعرهما هو الربح. بل كانت لكل

منهما قضية ينافح عنها، ويحاول ان يصل الى الهدف مستخدماً الشعر وسيلة للوصول الى ذاك الهدف.

قد يقول قائل ان دفاع النابغة وحرصه على قبيلته ليس بالشيء الجديد، فأن الشاعر الجاهلي، كان يعيش ويموت من أجل قبيلته نعم . . نحن نتفق مع أصحاب هذا الرأي، ولكن النابغة لم يكن كباقي الشعراء الجاهلين التقليديين، الذين سرعان ما يهبون للدفاع عن شؤون القبيلة، فيفتخرون ويحمسون الرجال على القتال، ويدفعونهم لخوض المعارك، ويصبون جام غضبهم على الأعداء، فيصفون الرجال بالجبن، والقبيلة بالخور والضعف الى غير ذلك من النعوت وليس كل الشعراء.

لم يكن شاعرنا على هذا النحو من الشعراء، بل كان أقرب الى الحكماء منه الى الشعراء. فقد كان يصيخ الى منطق العقل في كل أمر يُقبل عليه.

لهذا رأيناه يقف بعيداً في حرب داحس والغبراء، لأنه رأى كما يرى الحكيم ان هذه الحرب بين قبيلته ذبيان؛ وقبيلة عبس، ليس من ورائها نفع أو ربح أو حتى أنتصار لأنه في النهاية سيخرج الكل خاسراً مكلوماً. لهذا وقف منها موقفاً سلبياً، لم يشجع قومه عليها، ولم يتعرض لأعدائه بالهجاء. فقد أبى عليه خلقه ان ينزل الساحة بشعره ليزيد في أمد الحرب وضراوتها.

فحبذ الوقوف منها موقف المتألم، الذي كان يسفح العبرات ويرسل الآهات على ما حلَّ بقومه من جراء ويلات تلك الحرب.

أذن، نعود فنقول ان شاعرنا النابغة الذبياني كان أبعد الشعراء عن التكسب بشعره، ولو عدّه الكثيرون من النقاد القدامى والمحدثين، وعلى رأسهم أبو عمرو بن العلاء لأنه كان يأكل في صحاف من الذهب والفضة ـ كما ذكر ـ

وأخيراً، وليس بآخر ـ فان شاعرنا أبعد ما يكون عن التكسب بشعره، وليس هو من المدّاحين، الذين أتخذوا المديح هدفاً للربح والأغتناء.

بل كان صاحبنا صاحب قضية أستخدم المديح في خدمة قضيته، ولقد نجح في ذلك كل النجاح.



مراجع البحث

١ ـ ديوان النابغة الذبياني ؛ تحقيق د ـ شكري فيصل . دار السلام ـ بيروت ١٩٦٨ .

٢ ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ـ ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٢ .

٣ ـ من حديث الشعر والنثر د . طه حسين ـ مطبعة الصادي ـ القاهرة .

٤ ـ حديث الأربعاء ـ د . طه حسين ـ دار المعارف بمصر .

٥ ـ تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري ـ منشورات مكتبة المدرسة .

٦ ـ العصر الجاهلي د . شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر .

٨ ـ الشعر الجاهلي د . محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة .

٩ ـ العرب قبل الأسلام جورجي زيدان ـ دار الهلال .

١٠ ـ ديوان النابغة الذبياني الشيخ عبدالرحمن سلام ـ المكتبة الأهلية ـ بيروت ١٩٢٩ .

١١ ـ الجاهلية د . يحيى الجبوري ـ مطبعة المعارف في بغداد ١٩٦٨ .

١٢ ـ الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ط ـ دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

١٣ ـ البيان والتبين للجاحظ . تحقيق عبدالسلام ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٦٨ .

١٤ ـ التكسب بالشعر د . جلال الخياط ـ دار الآداب ـ بيروت ١٩٧٠ .

١٥ ـ الحيوان للجاحظ ـ تحقيق محمد هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٥ .

١٦ ـ الخصائص ـ ابو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥ .
١٧ ـ دراسات بلاغية ونقدية د . أحمد مطلوب ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام في الجمهورية العراقية ـ دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٠ .
١٨ ـ الشعر والشعراء ابن قتيبة. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٦ .
١٩ ـ الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي ـ د . محمد حسين الأعرجي ـ منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية ـ دار الحرية للطباعة ١٩٧٨ .
٢٠ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ أبو علي الحسن بن رشيق القيراوي تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة ١٩٣٤ .
٢٢ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ـ مطبوعات دار الميمون ـ مكتبة البابي الحلبي وشركاه: القاهرة ١٩٣٦
٢٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان ـ لأبن حلكان ـ تحقيق د . أحسان عباس. دار صادر ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٨
٢٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي، شرح محمد محي الدين عبدالحميد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٥٦
٢٥ ـ التوضيح والبيان، عن شعر نابغة ذبيات ـ مطبعة السعادة بمصر .

النابغة الذبياني

لا شك ان النابغة الذبياني، كان من فحول الشعراء الجاهلين، ولو لم يكن كذلك لما أستطاع ان يرقى الى ان يكون حكماً ما بين الشعراء كما أسلفنا.

ولو لم يكن قد طار صيته في الآفاق كشاعر مبدع في فنون القول، لما أحتفى به بلاط المناذرة، وأستقبله بلاط الغساسنة أسقبالا يليق بمكانته، يوم أتجه نحوهم ليمدحهم، وبالتالي ليكون شفيعاً لأولئكم الأسرى الذين وقعوا في اسر الغساسنة.

وفعلا أستطاع النابغة، بما أوتي من رقيق القول ولطيف المدح، ان يستلين قلوب الغساسنة فيطلقوا الأسرى الذبيانيين، الذين أسرو في موقعة وادي أُفر التي تكلمنا عنها سابقاً.

وقد عده ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء من الطبقة الاولى مع إمرىء القيس وزهير والأعشى. اذ قدمهم على كافة الشعراء الجاهلين.



مكتبة النهضة
بغداد - شارع المتنبي
هاتف ٤١٦٢٦٨٩

السعر ٢٥٠ر١ دينار

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٢٤٤) لسنة ١٩٨٨